الأستاذة: لمياء عيطو

مقياس: النص الأدبي الحديث

المحاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية دراسات أدبية (الفوج 03/02/01)

المحاضرة الرابعة: التجديد الشعري في المشرق (01)

لقد ارتبط التجديد الشعري بظهور ما يعرف بالتيار الرومانسي الذي عمل على إخراج الشعر من بوتقة القداسة الشعرية القديمة، ليواكب روح العصر ويفي بحاجات الإنسان الروحية التي تغيرت بتغير الأزمان، خصوصا إذا عُلِم بأن هذا العصر وسم بعصر السرعة، وهو ما جعل الشاعر يشق عصى الطاعة عن النموذج الكلاسيكي القديم ثم البحث عن حريته المفقودة من خلال إتباع سبيل المدرسة الرومانسية التي عززت فكرة الانطلاق من الذات الإنسانية وتجاربها وعمق تصوراتها التي تعود إلى الانغماس بمظاهر الطبيعة التي تعتبر الملجأ الآمن وحضن الأم الرؤوم الذي يلجأ إليه الشعراء.

لقد كان الشعر عند المدرسة الرومانسية يوافق ما قدمه ميخائيل نعيمة للتعريف بالشعر من خلال قوله: « الشعر هو غلبة النور على الظلمة، والحق على الباطل، هو ترنيمة البلبل ونوح الورق، وخرير الجدول وقصف الرعد، هو ابتسامة الطفل ودمعة الثكلى، وتورد وجنة العذراء وتجعد وجه الشيخ، هو جما البقاء وبقاء الجمال »، والملاحظ من خلال هذا التعريف أن ميخائيل نعيمة وحّد بين الشعر والطبيعة وجعلهما وجهين لعملة واحدة، ومن التكتلات الأدبية التي أعطت للشعر صورة جديدة نجد:

1- جماعة الديوان:

لقد نشأت هذه الجماعة على يد كل من عبّاس محمود العقاد (1889-1964)، عبد القادر المازني (1889-1949)، وعبد الرحمن شكري (1886-1946)، وقد كانت لهم وجهة نظر مختلفة للشعر حيث كان بالنسبة إليهم « تعبير عن وجدان الشاعر وذاته وحياته الباطنية، وصادرا عن نفس الشاعر وطبعه، والشعر عندهم تغلب عليه النزعة الوجدانية » والعودة إلى أحضان الطبيعة، وقد تأثر أعلام هذه المدرسة بالنزعة الرومانسية عند خليل مطران.

من الآراء التجديدية التي قام العقاد بنشرها : « رفض اتجاه المدرسة الاتباعية، والتعبير عن تجربة شعورية ذاتية، فكان الشعر بالنسبة إليهم مناجاة للروح والخيال، وتعبير عن خواطر إنسانية واعتمدوا على البعد الوجداني للشعر وتقديس العاطفة، وآمن هؤلاء بالوحدة العضوية للقصيدة ووحدة الموضوع وسلاسة الأسلوب »، وقد كان شعار هذه الجماعة هذا البيت الشعري:

ألا يا طائر الفردو س إن الشعر وجدان

التجديد المضموني عند جماعة الديوان:

كان لشعراء الديوان تجديد نسبي من حيث التناول والمعالجة للموضوعات بصورة عامة، فتمردوا « على ضيق المعاني المتناولة ومحدودية إطارها، ووقفوا أمام استخدام الشعر في بيان الموضوعات التاريخية ورفضوا التفاهة التي غلبت على الحياة والشعر، كما رفضوا شعر المناسبات ونادوا إلى الجوهرية والخيال والعاطفة المرهفة، وعبروا عن إنسانية الشعر ولا لسانيته »، وقد ظهر ذلك في أعمالهم الشعرية التي تميزت بالجدة والحداثة.

ومن الموضوعات التي طرقها شعراء هذه الجماعة نجد:

الموضوعات الفكرية والدينية:

لقد كان لشعراء هذه الجماعة قصائد فلسفية تأملية ناقشت فكرة الدين من منظور جديد، حيث نُظر إلى جوهره الذي يحرر النفس ويسمو بها في الدنيا والآخرة. يقول عبد الرحمن شكري:

أَكْذب الدين ما يُنَيم قوى المر ء كما يخرس الرّيـاح الركود

إنما الدين أن تُفك عن النفـ س من اليأس والخمول قيود

إنما الدين أن يجـدَّ مجـدٌّ أعْمل السَّعي أو يجيد مجيد

إنما الدين قـوة وجمـال وحيـاة وعدّة وعديـد

يبين شكري من خلال هذا المقطع الشعري رفضه القاطع لفكرة الدين الخاطئ الذي يقيد الإنسان ويفرغه من إنسانيته، ويصر على أن الدين الصحيح الحق هو الذي يبعث في الإنسان همة السمو بالنفس، هو ليس ضعف إنما قوة تبعث على الحياة لا الموت هو ذا الدين الذي يريده شكري. ويقدم جملة من التساؤلات الفكرية والفلسفية:

كيف يدري جلالة النفس غرّ أزعجتـه بوارق ورعـود

كيف يدري جلالة الله غـرّ حرّكتـه ضغائن وحقـود

في هذين البيتين ينفي شكري عن الفتى الغر معرفة جلال النفس، خصوصا إن كانت تملؤها الأحقاد والضغائن، فلا يدرك جلال الله إلا من كانت نفسه راقية نقية صافية، فكل مرحلة من الرقي تهيء الإنسان للدرجات العلا، وهو ما يجعل من شكري علما من أعلام التجديد والخروج عن النمطية والتقليد.

الموضوعات التأملية والتساؤلات الفلسفية:

يقف العقاد مسائلا نفسه عن الكون وعن الميلاد فيقول:

مـن رأى أوّل فجـر في فضاء الكون لاحا

من رأى الشمس استقلت وهي تشتـق الضراحا

واستعـارت من مطار الـ زّمن السّـــاري جناحا

من رأى الليـل ضميـــرا أبصـر النـــور فبـاحا

بـــاح بالكـــون فما ازدا د مع النور افتضـاحا

من وعـى أوّل صـــــوت أكبر الشمس فصاحا

وانتشـــــى أوّل عـــرف في نسيم الصبح فاحا

مـــا رأت ذلـك عيـــن لا ولا كـــان مباحا

كـــم تجلـى من صبـاح قبل أن يدعى صباحا

إن هذا المقطع يظهر على أنه نوع من الكتابة التساؤلية، اشتهر بها العقاد واختلف عن نظرائه فيها من خلال الإجابة على التساؤلات وعدم تارك باب التأويل فيها مفتوحا، وها هو ذا يتساءل عن أول من رأى الفجر الأول بعد الخلق، ومن أبصر المغيب أولا، ومن تنشق عبير الصباح، ثم يجيب بعد ذلك إجابة حاسمة لا تردد فيها بأن معرفة أول راء وأول مبصر تخرج عن القدرة البشرية وتدخل في باب الغيبيات التي يكون البحث فيها غير مباح.

الموضوعات الاجتماعية والحياتية:

لقد اهتمت جماعة الديوان بقضايا المجتمع ومشكلاته، لأن رؤية الشاعر لا تنفصل عن بيئته ومجتمعه، ويقول في ذلك العقاد: « كل ما نخلع عليه من احساسنا ونفيض عليه من خيالنا ونتخلله بوعينا ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر وموضوع للشعر، لأنه حياة وموضوع للحياة .. وعلى هذا الوجه يرى عابر السبيل شعرا في كل مكان إذا أراد ... يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يوم وفي كل واجهات الدكاكين المعروضة ... لأنها كلها تمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور الصالح للتعبير ». يقول العقاد في قصيدة الزوجة المهجورة في ميلادها:

مولـــدي يـوم شـقـائـي مات في المهد رجائي

ليـس في قلبـــي عـزاء أين في الدنيا عزائـي

أحســب البـدر ظلامـا وهو مصباح السماء

إن هذا المقطع الشعري مأخوذ من ديوان عابر السبيل الذي أجمع النقاد على تسميته بالديوان الاجتماعي، ذلك أنه ضم بين دفتيه عديد القصائد الاجتماعية التي تعالج وتمس الظواهر المنتشرة فيه، وتنتقد المجتمع الذي كان له دور كبير في تفاقمها. وها هي هذه المرأة الوحيدة تتجرع مرارة البؤس والحزن في ليل طويل بارد حتى أن مسرات الحياة أصبحت موضعا لمأساتها وتعاستها.

موضوعات تستوحي الطبيعة:

لقد جعل الشعراء من الطبيعة ملجأ وملاذا لهم يهرعون إليه هربا من الواقع المرير المحطم لآمالهم، فأخذوا من رموز الطبيعة وأسقطوها على واقعهم، وها هو ذا شكري يجعل منها مادة ذات عمق يستمد منها رموزه ومعادلاته الموضوعية، ويسقط عليها الحالات الإنسانية ، فالطبيعة تشتغل في شعره « مقاما مقاربا لما يشغله موضوع الحياة والموت، كما تفوق كثيرا مقام ما يشغله موضوع الحب، ففي الطبيعة يتجلى موضوعه الحبيب: الخيال والوجدان بصورة لافتة ... وبتقدم السنين التي نجد الوقفة أمام الطبيعة تتعمق وتتخذ من ملامح المدرسة الرومانسية الغربية الشيء الكثير ».

يعالج عبد الرحمن شكري موضوعات الطبيعة معالجة فكرية، تملؤها التأملات الفلسفية الراقية ومن ذلك قصيدته صوت الليل، يقول:

ملأت الكون من نفس عميق فأسمع كل ذي قلـــب مفيق

وأجريت الجلال على سكون يفيض على ظلامك كالأنين

أخرست الحيـــــاة وراغبيها وريح الموت تخفق منك فيها

كأنك شدو ظئر للوليـــــد إذا طردت به الصحو العنيد

في هذا المقطع ربط الشاعر الليل بالموت من خلال مظهر السكون، فالليل العميق لا يحسه إلا من كان صاحب بصيرة قوية يراقب من خلالها جدل الموت والحياة، التي ما يزال نموذجها يتكرَّر كل يوم منذ بدء الخليقة ,متمثِّلاً في حركة الليل والنَّهار بما يرمزان إليه من هجود، وسكون ومن حركة ونشاط، وبعث لما هجد ليلا، ولكن قليلا من الناس من تستوقفه تلك العلامات ,فلا يستشعرها إلا كل ذي قلب مفيق " وذلك التَّشخيص الذي نجده لليل والخطاب الموجه له زاد الأمر تأثيرا في نفس المتلقي ,ولم يتأتَّ ذلك عن صدفة في العمل الشِّعري ولكن فلسفة شكري ورؤيته للطبيعة حيث « يرى شكري أنَّنا ينبغي أن نفكر في الطبيعة المحيطة بنا على أنها كائن حي، وهو يتخذ من هذا سببا في الحملة على المذهب التقليدي الذي لا يرى في هذه الطبيعة إلا مظاهر جامدة ميتة في أغلب الأحيان ».

موضوعات ذات طابع ساخر أو سوداوي:

السخرية أول ما يلفت انتباه القارئ في أعمال الديوانيين فهي من السمات الملازمة لهم في غالبية أعمالهم من أعمال شعرية ونثريَّة ونقديَّة وهي ما تفتأ تقترن لديهم مع شكوى الزمان والحال، فالسخرية لديهم سخرية فيها شيء من القتامة والسوداوية. يقول المازني في قصيدته الملل من الحياة:

أكلمـــا عشت يومـــا أحسست أنـــي مِتُّه

وكلمـــا خلـــت أني وجدت خلصا فقدته

لا أعرف الأمـن عمري كأننـــي قـد رزئته

ما تأخـــذ العين إلا ما ملنـــي ومللتـه

كأن عينـــي مدلـــو لة على ما كرهتـــه

تضيئني الشمس لكن لأجتلي ما أجمتـــه

ثوب الحياة بغيـــض يا ليتني ما لبستـــه

فالسوداوية لا تحتاج دليلاً إذ يكفي أن تطَّلع على العنوان فتراها وهو يسخر من عيشه في أول أبيات القصيدة فإحساسه بأنه يموت ما يعيشه من أيام، وذلك إحساس يستوي فيه طعم الموت والحياة ولا يعرف فيه المذاق، ثم يمضي في شكواه وأنينه إلى أن يستنفد النص بلا بارقة لأمل حتى يختم قصيدته بحكم حاسم ببغض ثوب الحياة وندمه على أن كان له نصيب من لبسه.

التجديد الشكلي عند جماعة الديوان:

التجديد على مستوى اللغة والمعجم الشعري:

اعتمد أعلام جماعة الديوان في لغتهم ومعجمهم الشعري على كل ما جديد، حيث جعلوا اللغة العصرية مرتكزا مستخدمين مفرداتها وهذا ما يعد ضمن منجزاتهم وملامح التجديد عندهم. يقول العقاد في قصيدة أمام قفص الجيبون التي نجد فيها عصرية في لفظة البهلوان الغريبة والوافدة من خارج العربية :

أيُّهذا الجيبون أنعم سلامـــا يا أبا العبقري والبهلوان

كيف يرضى لك البنون مقاما مزريا في حديقة الحيوان

ومن قصيدته بعد صلاة الجمعة يقول:

هذا الذي يمشـــي ألا تراه كأنّما قد حملـــت يداه

سفتجة صاحبهـــا الإلـــه ذاك هو الدين وقد وفاه

فليس للدائن بالمطلوب

فهو يصف حبور من أدى الصلاة وقضى فرض الإله بفرحة من أدى دينه وحمل السفتجة، والسفتجة هي دفع شخص ماله في بلد لشخص آخر ليقبضه وكيله في بلد آخر دفعا لخطر الطريق ومؤونة الحمل، فاستخدم كلمة السفتجة وهي ليس عربية وانما فارسية، واستخدامها ليس قديما لدى العرب حيث لم تظهر في الشعر العربي القديم.

التجديد على مستوى الموسيقى:

يتم تناول موسيقى الشعر ضمن إطارين :إطار خارجي وإطار داخلي، فأما الخارجي فهو ما يتعلق بعلم العروض بما فيه من بحور وقوافي وتقعيد لها وما ينتابها من زحافات ومن علل، إلى جانب الفنون الشعرية المستحدثة من موشح وزجل وغير ذلك وليس فيه تجديد يذكر. وأما الإطار الداخلي فيتعلق بالجرس الداخلي للكلمات والذي يتأتى من تخيُّر الحروف المتناسبة داخل اللفظة الواحدة، وما بين الكلمات من تناغم متخلق من سجع أو جناس أو إيقاع داخليٍّ أو حسن تقسيم ... إلى آخر ذلك.

كانت هناك محاولة لإسقاط الرويِّ وكتابة الشعر على قافية ثابتة ورويٍّ متغيِّر، وهذه المحاولة وجدت عند شكري في أكثر من موضع، ولم تظهر لا عند العقَّاد ولا عند المازني، يقول في أول قصيدة له أتت بعنوان كسرى والأسيرة:

قصة ذات اعتبـــار آخذ بصميم اللّب يقريه الهدى

غضب الجبّار كسر غضبة فنما من شرّه ما قد نمـــا

غضبة ذات وعيـــد رائع ترك العرب كأطيار العـــرا

فحروف الروي جاءت على الترتيب (د،م،ر) وأما القافية فلم يحدث فيها تغيير حيث كانت على التوالي (هِلْهُدىْ، قدْنماْ، رِلْعُراْ) فاحتفظت بمتحركين بين ساكِنيها فهي من نوع المتدارك ثابتة في كلِّ الأبيات.

التجديد على مستوى بناء القصيدة:

- دعا الديوانيون قبل كل شيء إلى التزام الوحدة العضويَّة في القصيدة، ونادوا إليها فكانت الوحدة سمة عامة لكل أشعارهم.
- الشعر القصصي وقد كان شكري أكثر الثلاثة صياغة في هذا الضرب، ومن نماذج ما صاغ:كسرى والسيرة، عاشق المال، والتنويم المغنطيسي، وليتني كنت إلها، والشاعر وصورة الكمال، والحاجة المكتومة، والنعمان ويوم بؤسه، والزوجة الغادرة، ونابليون والساحر المصري، وقوة الفكرة، والملك الثائر.
- الشعر الحواري سواء أكان داخليا أو ذا طرفين، يقول المازني في قصيدته بعد الموت:

ترى يذكر الأحياء أهل المقـــابر ويعتادهم فيها كشوق المسافر

وهل تظمأ الأم العطوف إلى ابنها إذا انتزعتها منه أيدي المقـادر

تقول ألا ليته لصق أضلعـــــي كعهدي به والنوم ملء المحاجر

أضم إلى صدري حشاشة نفسه وأملأ قلبي منه بعد النـــواظر

فالقصيدة تمثِّل حوارا نفسيا داخليا، يتساءل فيه الشاعر تساؤلات مفتوحة، وهذا الضرب من النَّظم مألوف وكثير لدى الديوانيين، ولعل سببه أنهم أكثروا من الشعر التأمُّلي والفلسفي، وهذه الطريقة النَّظمية تناسب ذلك الموضوع لأنها تتيح للشاعر عرض فرضياته وتساؤلاته.

بعض المراجع المعتمدة في المحاضرة:

- مصطفى محمد هدارة: بحوث في الأدب العربي الحديث.
- نسيب نشاوي: المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر.
- محمد عبد المنعم خفاجي: دراسات في الأدب المعاصر.
- ميخائيل نعيمة: الغربال.
- ناصر بركة: محاضرات في النص الأدبي الحديث.
- علي الأطرش: محاضرات في النص الأدبي الحديث.
- حسن علي حسن سليمان: مظاهر التجديد في الشعر الحديث.